

في سيكولوجية الرواية العائلية

قراءة في رواية "رسائل من تحت الأرض" لدوستوفسكي

In the Psychology of the Family Narrative:
A Reading of Dostoevsky's "Notes from Underground"نوال حنش¹، إيمان ملال²¹ جامعة عباس لغرور خنشلة مخبر المتخيل النقدي المعاصر والدراسات الحديثة في الفكر

واللغة والأدب (الجزائر)، nawal.heneche@univ-khenchela.dz

² جامعة عباس لغرور خنشلة (الجزائر)، Imen.mellal@univ-khenchela.dz

تاريخ النشر: 2024/12/19

تاريخ القبول: 2024/12/10

تاريخ الاستلام: 2024/10/26

Abstract:

The family narrative is a central tool in psychological approaches, providing researchers with methods to explore the human psyche, revealing complex family dynamics and internal conflicts that help uncover behavioral patterns. We argue that the novel is the most effective literary form for addressing diverse issues, leading us to select Fyodor Dostoevsky's Notes from Underground. This novel goes beyond the traditional family, offering profound insight into the intricate relationship between the individual and society, which can be viewed as a kind of extended family. It serves as an ideal work for examining complex psychological and social themes.

Key words: Psychoanalysis, Family narrative, Family dynamics, Novel, 'Notes from Underground'.

المخلص:

تعدّ الرواية العائلية أداة من الأدوات المركزية في التيارات النفسية، أداة تقدّم للباحث آليات إجرائية، ليخوض غمار رحلة في أعماق النفس البشرية، ومن ثمّ استنطاق مختلف العلاقات العائلية المعقّدة، والصراعات الدّاخلية، للكشف عن الأنماط السلوكية للشخصية وفهم نفسيّتها. وبناء على ما سبق، ارتأينا أنّ النّصّ الروائيّ هو أكثر الأجناس الأدبيّة قدرة على استيعاب وتنويع القضايا المطروحة، حيث وقع اختيارنا على رواية "رسائل من تحت الأرض" للكاتب الروسيّ "فيودور دوستوفسكي، وذلك لأنّها لا تركز بشكل أساسي على العائلة التقليديّة بل تقدّم لنا نظرة عميقة حول العلاقة المعقّدة بين الفرد والمجتمع، والتي يمكن اعتبارها نوعاً من العائلة الموسّعة.

الكلمات المفتاحية: التحليل النفسي، الرواية العائلية، الديناميكية العائلية، الرواية، 'رسائل من تحت الأرض'.

1. مقدمة

يعود مصطلح "الرّواية العائليّة" إلى مؤسّس علم النّفس الحديث وزعيم مدرسة النّحليل النّفسيّ، طبيب الأعصاب النمساويّ "سيغموند فرويد" (Sigmund Freud)؛ الذي أصدر نصّاً طويلاً عام 1909 تحت عنوان "رواية العصابين العائليّة"، نشره في كتاب "أسطورة ولادة البطل" للكاتب "أوتو رانك" (Otto Rank)، لتأتي النّاقدة الأدبيّة الفرنسيّة "مارت رويبر" (Marthe Robert)، وتكون أوّل من وظّف هذا المصطلح في كتابها "رواية الأصول وأصول الرّواية" (Origines du roman et roman des origines) الصّادر عام 1972.

اعتمدت "مارت رويبر" على أدوات النّحليل النّفسيّ، للولوج إلى أعماق النّصّ الأدبيّ - الرّواية - بوصفه كيانا قائماً بذاته؛ من أجل كشف أسرار الخفيّة الكامنة فيه بعيداً عن السيرة الذاتيّة للمؤلّف (عمرو عيلان، 2008، ص216)، فقدّمت بهذا رؤى جديدة حول كفيّة تأثير الديناميكيّة العائليّة في تشكيل هويّة الفرد وسلوكه، والكشف عن الصّراعات الداخليّة واللاوعي الجمعيّ الذي يحكم هذه العائلة؛ باعتبار الرّواية مرآة عاكسة لها، وبهذا فقد استندت النّاقدة على مقترحات النّحليل النّفسيّ "لفرويد"؛ من خلال بحوثه النّحليليّة التي توصّل بها إلى الرّواية الأسريّة عند العصابين، إلّا أنّ "مارت رويبر" كان غرضها مختلفاً عنه؛ فهي حاولت بناء جسر يُعين على تطوير منهجيّة نقدية أدبيّة وفنية قائمة على أسس علميّة.

وفي هذه الورقة البحثيّة سنقوم برحلة استكشاف للرّوابط الأسريّة، التي تتضمّن راية "رسائل من تحت الأرض" للكاتب الروسيّ العالميّ "فيودور دوستوفسكي" (Fiodor Dostoïevski)، والدّوافع الخفيّة التي تحرّك تصرّفات الشّخصيّات ومدى تأثير هذه الرّوابط على مصيرها.

ومن داخل هذا التّركيب الجامع بين الرّواية كجنس أدبيّ والنّفس البشريّة كعالم واسع ومعقّد يسكن كلّ فرد منّا، تتمخّض عدّة أسئلة يؤسّس مجموعها إشكاليّة هذه الدّراسة، والمتمثّلة في:

- كيف تُبنى مَوَاقِفُ الشّخصيّات وفق تأثير العلاقات الأسريّة؟

- ما هي الدّوافع الخفيّة التي تحرّك تصرّفات الشّخصيّات؟

- ماهي أهمّ الآليات النفسية التي تسهم في خلق التوتّر والصراع داخل العائلة لتظهر في الرواية؟

وانطلاقاً من هذه التساؤلات نتجلى إشكالية كبرى تعدّ محور هذا المقال:

• كيف يمكن صبّ مفهوم الرواية العائلية "لمارت روبير" على تحليل الديناميات الأسرية لشخصيات رواية "رسائل من تحت الأرض" لفيودور دوستوفسكي، وما الدور الذي تلعبه هذه الأخيرة في تشكيل الصراعات النفسية لدى الشخصيات؟
معتمدين في محاولة الإجابة عنها على المنهج النفسي والتأويل؛ الذي يفتح إمكانية القراءة النفسية للنصّ المدروس وفق الرواية العائلية "لمارت روبير".

أما أهداف هذا الموضوع؛ فهو كشف مكنون النفس البشرية؛ باعتبارها لغزاً يثير الاهتمام، لا سيما من خلال التلاحم الطبيعيّ بين الأدب والدراسات التي تبحث في أسرار النفس، ممّا كشف عن نظام جديد، يُعرف بالنظام الجينالوجي (نظام السلالة)، الذي يحاول الوصول إلى كيفية تشكيل الشخصية وسلوكها.

2. ظلال الطفولة جنود ظلام

تعتبر رواية "رسائل من تحت الأرض" (لفيودور دوستوفسكي) تحفة أدبية تغوص في أعماق النفس البشرية، إذ تتناول تطوّر الشخصية من الطفولة إلى مرحلة المراهقة المبكرة، وفي هذا ترى مارت روبير أنّ "الانتقال من رواية الولد اللقيط إلى رواية الولد غير الشرعيّ أمر حاسم في حياة الإنسان إذ معه يتفكك عالم الطفولة ويتبخّر ليقوم على أنقاضه عالم المراهقة". (مارت روبير، 1987، ص18)

تدور أحداث الرواية حول راوٍ مجهول كاره للبشر يائس ومتناقض، يعيش وحده في مدينة بطرسبرغ الروسية، كان من العاملين في الخدمة المدنية الروسية، ثمّ تقاعد بسبب بعض روبلات أورثه إياها قريبه، فانعزل عن المجتمع ليجد نفسه أنيس مذكرات يكتبها ليعزي بها نفسه.

تتكوّن الرواية من الرسائل التي كتبها الرّجل، وهي مجموعة من الاعترافات المتناقضة والمشوشة، التي تصف وتفسّر ابتعاده عن المجتمع الحديث.

تتجَرَّأُ الرِّسَالَت إلى جزأين: الجزء الأوَّل قصير يدور في ستينيات القرن التَّاسع عشر، حيث كان رجل القبو يبلغ من العمر أربعين عاماً، فيقدِّم لنا شخصيَّته مع توضيح نظريَّاته حول موقفه العدائيِّ تجاه المجتمع.

فالراوي رجل مريض، شرير، وغير جَذَاب، يتقنُّ في جلد نفسه، وهو مايعرف في أدبيات التَّحليل النَّفسي بالسَّادية (السَّادِيَّة 'Sadisme': مصطلح ورد في معجم مصطلحات التَّحليل النَّفسي لجان لابلاش بمعنى الاعتداء على الآخر الَّذي لا تؤخذ آلامه بعين الاعتبار). ويتَّصف بالعدائيَّة تجاه الآخرين، يحاول الانتقام بأيِّ طريقة كلِّما شعر أنَّه متسلَّط، وفي المقابل هو رجل ذكيَّ محبٍّ للقراءة، فيعتقد أنَّ هذه الحقيقة هي سبب بُؤسه.

يشرح لنا الراوي أنَّه في هذا المجتمع يجب أن يكون الرِّجال المتعلِّمون والواعون بائسين مثله، فقد أصيب بكلِّ خيبات الأمل من كلِّ أنواع الفلسفة، كما يوضِّح لنا ازدرائه الشَّديد لنفعية القرن التاسع عشر.

كذلك نجده يشتكي من رغبة الإنسان الأساسيَّة في ممارسة إرادته الحرَّة، سواء كانت في مصلحته أو لا، في مواجهة نفعية سيقوم الإنسان بأفعال سيئة وغير مفيدة، ليثبت أنَّ إرادته الحرَّة حرَّة تماماً (هذا من منظوره الفلسفي).

أمَّا الجزء الثَّاني، فيصف لنا الأحداث الَّتِي عايشها الراوي في أربعينيات القرن التَّاسع عشر، عندما كان يبلغ من العمر أربعة وعشرين عاماً، بطريقة أخرى فقد خصَّص هذا الجزء ليوضِّح لنا توضيحاً عملياً الأفكار الأكثر تجريدا الَّتِي ضمَّنها في الجزء الأوَّل.

يصف هذا الجزء التَّفاعلات بين الرِّجل والأشخاص الَّذين يسكنون عالمه؛ كالجنود وزملاء الدِّراسة السابقين وليزا، فالراوي بعيد جدًّا عن هؤلاء الأشخاص لأنَّه غير قادر على التَّفاعل الطَّبيعيِّ معهم، فنجده يعاملهم بمزيج من الاشمئزاز والخوف ممَّا يؤدِّي به إلى النَّدَم وكرهية الذات.

وحول هذا، فإنَّ الرواية حسب "مارت روبير" عبارة عن مسرح، تتجلَّى فيه الصِّراعات اللاَّواعية الَّتِي يعيشها الكاتب من خلال شخصيَّاته وأعماله الأدبية.

تنتقل الرواية العائلية (ورد هذا المصطلح في معجم مصطلحات التَّحليل النَّفسي لجان لابلاش، تحت مسمَّى 'رواية أُسريَّة Roman Familial') من نقطة الصِّفر، من بدايات الوعي الأوَّل، من اللَّحظة الَّتِي يبدأ فيها الوعي بالتَّشكُّل، ففي المرحلة الأولى للرواية: تبرز صورة الولد اللَّقيط باعتباره بريئاً براءة شبه مطلقة، إذ يتلاشى عنده الفرق بين الجنسين

(ذكر أو أنثى)، فيظهر له أنّ أبويه هما كيان واحد. هذه المرحلة تستدعي القارئ إلى إعادة النظر في حالة البداية (حالة الانصهار) والبحث في العوامل النفسية التي تسهم في تشكيل الهوية الفردية. (ينظر: مارت روبير، 1987، ص12)

تكشف الرواية العائلية في مرحلتها الثانية: عن عالم أكثر تعقيدا، عالم صراعات نفسية عميقة داخل الأسرة، عالم الوعي الجنسي الناشئ، فالابن غير الشرعي في هذه المرحلة العمرية الحرجة يدرك الفروق الجسدية والاجتماعية بين الجنسين، وبالتالي يجد نفسه أمام أنموذج أبوي يرمز للسلطة والقوة، بينما الأم تقبع في زاوية الضعف والحاجة إلى الحماية، نتيجة ذلك تنتبه مشاعره للتعاطف مع الأم والرغبة في حمايتها، مما يؤهله للتفكير في التخلص من الأب باعتباره عائقا يجب تخطيه، ففكرته هذه تعكس رغبة الإنسان الفطرية في السيطرة والتملك وليست رغبة شخصية فقط. (مارت روبير، 1987، ص15-

16)

فالرواية لا يتعدى شكل صناعتها سوى أنموذجين: أنموذج (ابن الزنا) الذي يواجه تحديات العالم بشكل صريح؛ لأنه بهذه الطريقة يحمي نفسه ربّما، وربّما للتعبير عن الذات كوسيلة للتواصل مع الآخرين.

وأنموذج (الطفل اللقيط) الذي يعتمد على تجنب الآخرين، بسبب شعوره بعدم الثقة أو بسبب افتقاره إلى المعرفة والمهارات اللازمة، فيظلّ كالقارب النائم الذي يضرب أمواج الحياة دون دقة ولا شراع.

أما الأنموذج الأول؛ فتضمّ الناقدة إليه مجموعة من المؤلفين منهم: بلزاك (Balzac)، هوغو (Hugo)، سو (sue)، تولستوي (Tolstoi)، دوستويفسكي (Dostoïevski)، بروسست (Proust)، وديكنز (Dickens).

وفي النّموذج الثاني تضمّ: سيرفانت (Cervantes)، سيرانو دوبرجرارك (Cyrano de Bergerac)، هوفمان (Hoffmann)، جان بول (Jean-Paul)، نوفاليس (Novalis)، كافكا (Kafka) وميلفيل (Melville). (ينظر: جان إيف تادييه، 1993، ص220-

221)

إذن، فإن "مارت رويبر" حاولت السَّعي إلى المواءمة بين نظريتين مختلفتين، من خلال قراءتها التحليلية للرواية العائلية، فهذه الأخيرة تعكس الصراع العميق القائم بين الرغبة في التملك والرغبة في الاستقلال.

3. العزلة كإعادة إنتاج للانفصال العائلي

تعرّف العزلة في معجم التحليل النفسي على أنها حالة نفسية متشابهة؛ تعني الانسحاب وتجنّب العلاقات الاجتماعية أو العالم الخارجي، أما في رواية "رسائل من تحت الأرض" فالعزلة تعبّر عن بعد نفسي عميق يرتبط بالنفي والإقصاء من المجتمع ومن الأسرة كنظام عائلي، فالراوي شخصية معدّبة منعزلة؛ هذا الانعزال ليس جسدياً فقط بقدر ما هو انعزال نفسي.

فنجده يلجأ إلى العزلة كوسيلة تساعد على الهروب من الضغوطات الاجتماعية، فهو يعاني القيود المفروضة عليه من المجتمع ممّا يضغط عليه ويجعله يهرب إلى العزلة ليعبّر عن رفضه لهذه القيود وكرهه لهذه المظاهر وفي هذا يقول: "وقبعت في زاويتي. ولم تكن هذه الزاوية غريبة عليّ، فقد كنت أقضي فيها بعض الأوقات، إلا أنني استطعت بعد ذلك أن أُنسّق فيها نهائياً". (فيودور دوستوفسكي، 2017، ص20)

وتظهر عزله أيضاً بعد تركه للوظيفة فقط لأنّه ورث ستّة آلاف روبل عن قريبه فيقول: "إنني أعيش في عزلة مفزعة كئيبة في أحد أطراف المدينة". (فيودور دوستوفسكي، 2017، ص20)

وهذا يدلّ على أنّه يهرب إلى العزلة، وأنّ عزله ليست اختياراً شخصياً بل هي انفصال من الصّيف العائليّة التي تستدعي منه أن يكون شخصاً اجتماعياً. كذلك فهو يراها أداة للتّفكير العميق، حيث يتأمّل أفكاره ويسترجع ذكرياته؛ فهو يتذكّر علاقته بأسرته وكيف كانت تهمّشه ولا تبدي له تفهماً ولا تقبلاً، فيقول: "... هو أنني أنا المعلوم دائماً وفي كل شيء، مهما كانت نظرتي إلى الأمر" (فيودور دوستوفسكي، 2017، ص23)، فقد طلق كلّ ما حوله.

كما أدّت به العزلة إلى الانفصال العاطفي، إلى درجة أنّه لا يفكر في الانتقام من رجل صفعه، لا لأنّه خائف منه، وإنّما لا يريد ولن يقرّر ذلك حتى لو كان قادراً عليه، فيقول مستغرباً: "يدهشني أولئك الذين يستطيعون أن ينتقموا ممن يهاجمهم". (فيودور دوستوفسكي، 2017، ص25)

نجدّه أيضاً عبّر عن انفصاله العاطفيّ وعدم القدرة على التّواصل مع الآخرين وفشله في إقامة علاقة ناجحة معهم فيقول: "ولم يكثرث أحد منهم لي، فجلست وأنا أشعر بالانسحاق والذّلة" (فيودور دوستوفسكي، 2017، ص116)، وهذا ما يعكس الفجوة العميقة بينه وبين الآخر فيزيد شعوره بالوحدة، ممّا يجعله ينظر إلى العائلة بأنّها مصدر للألم والرّفص في الوقت الذي كان يجب أن تعبّر فيه هذه الأخيرة عن الحماية والدّعم؛ يقول: "وقد أخبرني البعض بأنّ مناخ بطرسبرغ لا يلائمني، وأنّ الحياة فيها لا تتناسب مع دخلي المتواضع" (فيودور دوستوفسكي، 2017، ص20)، فهو يحولها من عائلة دامة إلى عدوّ ينظر إليه نظرة سلبيةّ بمشاعر عدائيّة.

في المقابل، في الكثير من صفحات الرّواية تظهر العزلة إيجابيّة لا سلبية - طبعاً من منظور الزاوي - فهي التي فتحت له نافذة لاكتشاف ذاته وتعزيز هويّته الفرديّة، حيث يقول: "بقد بلغ بي الأمر أن صرت أحس بنوع من المتعة الشاذة الحقيرة في العودة إلى البيت للركون في زاويتي...أسلّ نفسي حتى يتحول الندم إلى نوع من العذوبة... وأخيراً إلى استمتاع حقيقيّ". (فيودور دوستوفسكي، 2017، ص22)

فالعزلة حسب الزاوي أخذت أبعاداً عدّة فأبحرت من عزلة اختياريّة، عبّر بها الزاوي عن رفضه للقيم الاجتماعيّة السائدة، إلى عزلة قسريّة يعانها الزاوي بسبب شخصيّة المعقّدة، ومنه إلى عقدة نفسيّة جعلته يسبح في عالم باطني تملأه الصراعات والتناقضات، لترسو على العزلة الفلسفيّة التي من خلالها يرفض فلسفات العالم (بتفسيرها وتقديمها لحلول جاهزة) فيشعر باليأس تجاه فهم الحياة بكلّ معانيها.

ومنّه تصبح العزلة في رواية "رسائل من تحت الأرض" سبيلاً إلى صراعات نفسيّة عميقة ومعقّدة باعتبارها تعبّر عن الألم والرّفص وليست مجرد هروب، هذا من جهة، أمّا من جهة أخرى فهي وسيلة البحث عن الهوية الحقيقيّة وبالتالي فهما وجهان لعملة واحدة.

4. التمرّد والشّعور بالذّنب (العقدة الأوديبيّة)

يتميّز الزاوي -باعتباره شخصيّة محوريّة في الرّواية- بروح متمرّدة بامتياز، فهو يعيش حالة من محاولة التحرّر من القيود والبحث عن الذات، كما يشعر بالذّنب خوفاً من العقاب أو الرّفص ممّا يؤدّي به إلى توتّر نفسيّ عميق، فهو لم يكتفِ بالانسحاب من المجتمع، بل يلجأ إلى التمرّد على القيم والمبادئ السائدة التي يمثّلها هذا الأخير، حيث أنّ

التمرد والشعور بالذنب يعكسان بصفة أساسية الصراع بين الرغبات الفردية و'سلطة الأب' التي يمثلها المجتمع في هذه الرواية.

فالراوي هنا يصف ازدرائه تجاه القيم الاجتماعية التي فرضت وتقرض عليه، يقول: "... الناس العمليين المباشرين يبدون نشاطاتهم وفعاليتهم لسبب بسيط، هو أنهم حمقى محدودون" (فيودور دوستوفسكي، 2017، ص36)، هنا يعبر عن شعوره بالتفوق على الآخرين (كونه أكثر ذكاء وإدراكا منهم)، وهذا ما يدفعه إلى التفكير في التقدم وعيش حياة طبيعية، لكنه في الوقت نفسه يكبحه ليسبب له صراعات نفسية ينجم عنها الخوف من الفشل وبالتالي يفقد الآلية الدفاعية لحماية ذاته وهذا يعزز في نفسه جلد ذاته حين يشعر بالذنب العميق نتيجة هذا التمرد من خلال التأمل والتفكير في قراراته واختياراته في الحياة، فهو يعاني من عدم تمكنه من التكيف مع القيم المجتمعية وبالتالي لا يقدر على تجاوز هذا النظام الأبوي كلياً فيبقى محاصراً داخله ولو حاول التمرد عليه.

كذلك الصراع الذي يعيشه الراوي بين الهوية (الذات الفردية) والسلطة (النظام الأبوي)، فيتبدى الصراع في الأفكار التي تتبادر إلى ذهنه حول نفسه وعلاقته بالآخرين فيعبر عنه في قوله: "حاولت أن أحطم قيودي... لأنني كنت أريد أن أعيش بأية طريقة". (فيودور دوستوفسكي، 2017، ص36)

فالشخصية في هذا السياق تظهر مترددة من اتخاذ خطوات نحو التحرر من قيود السلطة الأبوية لكنها في الوقت نفسه تعيش حالة من التعذيب النفسي (الشعور بالذنب).

وهذا ما يقودنا إلى ازدواجية الصراع الأوديبي ومحاولته للتفاوض حول إحداثياته في النظام العائلي دون الانفصال النهائي عنه، فيبقى محاصراً بين الرغبة في التمرد أو الانتماء. فتمرده على القيم الأبوية وتجذبه للعلاقات الاجتماعية، كانا سببا في عزله فنتج عنهما شعوره بالذنب وعدم استحقاقه الانسجام مع الآخرين، وفي هذا يقول: "فإذا لم تنتبهوا لي سأنكر معرفتكم وسأترجع إلى النقب الذي خرجت منه في باطن الأرض". (فيودور دوستوفسكي، 2017، ص62)

فهذه العقوبة الذاتية التي حكم الراوي بها على نفسه تؤدي بنا إلى الصراع الأوديبي في عمقه فهو يقول: "لقد بلغ بي الأمر أن صرت أحسّ بنوع من المتعة الشاذة الحفيرة في العودة إلى البيت للزكون إلى زاويتي في ليلة كريمة". (فيودور دوستوفسكي، 2017،

ص22)

يتّضح هنا أنّ الزاوي كان ضحية قراراته وخياراته ينتقل بنا من العزلة وشعوره بالذنب إلى حاجته إلى القبول والاعتراف، ومحاولة فهمه من قبل الآخرين ومحاولة التّصالح مع الذات والمجتمع، فيقول: "... الجميع صاروا يعترفون اعترافا كاملا صادرا عن إرادتهم الحرة بكما لي، ولهذا كنت أعتذر للجميع وكنت أسامحهم". (فيودور دوستوفسكي، 2017، ص91) إذن؛ محاولته للقيام بهذه الخطوة توضّح أنّ العلاقة الأدبيّة مملوءة بالمتناقضات والتّعقيدات وهذه هي الديناميكية التي طرحتها "مارت روبير".

5. ازدواجية الذات والبحث عن الهوية

تطرقت "مارت روبير" إلى الشّخصيّة من منظور "الرواية العائليّة" عبر الازدواجيّة التي تعكس اللاوعي الأسري؛ فيظهر الشّخص مرتدياً قناعا مختلفا باختلاف الموقف، وقد تطرّق يونغ 'Jung' إلى فكرة القناع هذه أو ما سمّاه "البرسونا"، حيث يرى بأنّه الوجه الذي نقابل به العالم، وونشئه للتكيف والتفاعل مع الآخرين، وقد يوافق جزء من شخصيتنا (أو كما يسمّيها يونغ "الأنا") وقد يكون مختلفا تماما عنها، فنرتدي القناع إمّا من أجل حماية أنفسنا من الانتقادات الاجتماعية، أو من أجل التكيف والانسجام مع محيطنا، كما يمكن استخدامه كألية دفاعية تجاه الألم والضعف الذي نواجهه. (ينظر: إبراهيم فضل الله، 2011، ص63)

ف نجد التناقض الذي يعايشه الزاوي في بعض الأحيان يصل إلى تناقض مع الذات الحقيقيّة. فالزاوي في هذا السّياق يحاول الهروب والتحرّر من قيود البيئة الاجتماعيّة، ليكتشف أنّه غير قادر على إيجاد هويته خارج هذه الحدود، وبين هذه المتناقضات، يقول: "عشت حياتي كلها محولا عيني عن الناس، لأنني لم أكن أستطيع أن أنظر إلى وجوههم". (فيودور دوستوفسكي، 2017، ص24) ليعبر بهذا عن تهميش المجتمع له لأنّه لا يفهمه.

كذلك نجد الزاوي يعيش بين ازدواجيتين هما: شعوره بالتّقص من جهة وتفرّده وتفوّقه على الآخرين من جهة أخرى، وبالتالي فهو واعي بعجزه عن التّواصل مع الآخرين ومختال بتفوّقه الفكري عليهم؛ فيقول: "كنت أشد منهم ذكاء وثقافة وأرق منهم شعورا طبعاً". (فيودور دوستوفسكي، 2017، ص84)

إذن؛ فهو يبحث عن هويته الحقيقيّة، ومحاولة فهم تعقيداته النفسيّة.

بينما في أبواب أخرى من رواية "رسائل من تحت الأرض" يكشف عن الاضطراب الذي يعيشه والصراع الذي يعتريه بين كينونته الذاتية (هويته الأصلية) وبين المحاربة للامتنال للقوانين الاجتماعية (هويته الجديدة)؛ فيقول: ليس في استطاعتك أيضا أن تكون إنسانا مختلفا، وأنه حتى إذا كان لديك شيء من الإيمان ومتسع من الوقت لتصبح إنسانا آخر... فإنك لن تفعل شيئا منه، لأنه ربما لا يوجد في الواقع ذلك الشكل الذي تريد أن تكون" (فيودور دوستوفسكي، 2017، ص23)، وبالتالي فهو واقف بين ذاته التي يرفضها وبين المجتمع الذي لا يرغب في الانتماء إليه.

رغم الازدواجية والتناقضات نجد الراوي يسعى إلى محاولة تحقيق هويته وذلك بتأملاته العميقة فيقول: "أريد أن أعيش، ليكون في إمكاني إشباع كل إمكانياتي الحياتية". (فيودور دوستوفسكي، 2017، ص51) وبالتالي يجعل لازدواجية الذات أهمية ذلك لأنها تساعد في فهم النفس البشرية وتطوير الشخصية لتصبح أكثر عمقا واقتدارا.

6. الاغتراب الوجودي والخيال ملاذ

يلجأ الراوي عند دوستوفسكي إلى الخيال كسبيل لمحاربة الكراهية والنفور تجاه العائلة، فهو يعاني الاغتراب الوجودي في عالم لا يفهمه ولا يقبله؛ ليتمنى لو كانت عائلته أكثر فهما، فيقول: "...يتخيل أتفه تفاصيل ذلك الاحتقار". (فيودور دوستوفسكي، 2017، ص27)

فهو يعيد رسم الخيال حتى يقلل من ألم الواقع، ويهرب من العالم القاسي ليصبح الخيال ملجأ آمنا وحماية وطمأنينة، قام ببنائه ليلائم رغباته وأحلامه؛ فهو يلجأ إليه ليعتد عن التعقيدات العائلية.

يمكن القول أن هذا اللجوء إلى الخيال كان سببه الاغتراب الوجودي الذي بدوره يظهر امتداد الصراع العائلي وفقدان الصلة مع الأسرة؛ فيقول الراوي في هذا: "... أشياء حدثت لي، وكأن حدوثها كان مقصودا، في الوقت الذي كنت أدرك فيه أشد الإدراك أنها يجب أنلا ترتكب... إلا أنني قاسيت في البداية... لأنكم تكرهون أن تصغوا إلى أنني،" (فيودور دوستوفسكي، 2017، ص22) فيشعر الراوي بالعزلة والضيق والغربة.

فالراوي يعبر عن شعوره بعدم الانتماء لأسرته ولمجتمعه، وفي وضع من الانفصال عن ذاته أيضا، وبالتالي فهو يعيش اغترابا عميقا في عالم مليء بالتحديات، فيقول: "كنت في تلك الأيام أؤمن إيمانا أعمى بأن معجزة ما، أو حادثة خارجية ستحدث" (فيودور

دوستوفسكي، 2017، ص90)؛ بهذه العبارة يوضح الزاوي أنّه تأثّر بشعر بالضّياع والوحدة ولا يعرف أين الوجهة.

لكنه يعود ليناقض نفسه فيشرح لنا كيف أنّ الاغتراب يمكن اعتباره حالة وجوديّة في التأمّل والبحث عن الحياة بقوله: "إنّ الحياة في باطن الأرض هي أكثر فائدة، فهناك أستطيع..". (فيودور دوستوفسكي، 2017، ص65)؛ وبالتالي فهو يحاول ممارسة إدراك عميق لذاته والتفاعل مع أفكاره، ليصبح الاغتراب الوجوديّ مصدراً للحرية، ومنبعاً للأبداع، وبداية لرحلة روحية لفهم أعمق للذات وعلاقتها بالكون.

فتبرز هذه الديناميّة من منظور "مارت روبير" قوّة الصّراع النّفسي في تشكيل التجربة الإنسانيّة.

7. خاتمة

في الأخير نخلص إلى النقاط التّالية:

- الأدب من منظور "مارت روبير" يعكس الهياكل النّفسيّة التي تتعلّق بالعائلة خاصّة علاقة الهوية الفرديّة مع والدين.
- يمكن اعتبار الرّواية العائليّة وسيلة تلجأ إلى الخيال وتقنيات السّرد لصياغة الصّراع الأوديبيّ في قالب فنيّ.
- رواية "رسائل من تحت الأرض" لفيودور دوستوفسكي" عمل أدبيّ عميق سبّاق في طرح القضايا الوجوديّة ومحاولة فهم النّفس البشريّة بشكل أفضل من خلال شخصيّة البطل المثيرة والمريكة.
- العزلة طريقة غير واعية للتّعامل مع الانفصال الذي يسبّبه الألم النّفسيّ، فهي آليّة دفاعيّة للحماية من الألم.
- يقابل التمرد والشّعور بالذنب رغبة الشّخص في التخلّص والتحرّر من القيام بأمور مخالفة لقيمه الشخصيّة وبالتالي يرغب في الاستقلاليّة.
- يمثّل الاغتراب الوجوديّ عدم الانتماء إلى العالم وقد يصل إلى الشّعور بالغربة عن النّفس؛ وبالتالي يعتبر الخيال ملاذاً آمناً للهروب من مشاكل الحياة اليوميّة واستكشافاً للشخصيّة بجوانبها المختلفة.

- يظهر الخيال على أنّه أداة قويّة للتغلّب على الاغتراب الوجوديّ من خلال خلق قصص وعوالم جديدة.

8. قائمة المصادر والمراجع

المؤلفات:

- إبراهيم فضل الله، علم النفس الأدبي مع نصوص تطبيقية، دار الفرابي، بيروت-لبنان، ط1، 2011.
- جان إيف تاديه، التقاد الأدبي في القرن العشرين، بر: الدكتور قاسم المقداد، منشورات وزارة الثقافة-المعهد العالي للفنون المسرحية، دمشق، د.ط، 1993.
- جان لابانش وجان تراندبونتاليس، معجم مصطلحات التحليل النفسي، تر: مصطفى حجازي، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط3، 1997.
- عمرو عيلان، في مناهج تحليل الخطاب السردي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د.ط، 2008.
- مارت روبير، رواية الأصول وأصول الرواية (الرواية والتحليل النفسي)، تر: وجيه أسعد، مراجعة: أنطوان مقدسي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، د.ط، 1987.
- فيودور دوستويفسكي، رسائل من تحت الأرض، تر: أنيس زكي حسن، الأهلية للنشر والتوزيع، لبنان، ط2، 2017.